من أوراق الرئيس (8)

الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة!

فجأة جاء بودجورنى يطلب معاهدة مع مصر؟

وهذه حلقة من سوء فهم السوفيت لشعب مصر، ومبالغتهم فى تقدير وزن وحجم الرجال الذين اعتمدوا عليهم.. فهل تعلم السوفيت من ذلك شيئاً؟ . وهل غيروا من طبيعتهم المتشككة فى كل شيء وكل الناس؟...

إن الرئيس السادات فى (أوراقه) التى يسجل فيها جانباً خطيراً من التاريخ المصرى- عبرة وعظة ومادة للتأمل – يجعلنا تقترب من ذلك برفق وبصيرة وصراحة وواقعية.

وفى الأشرطة المسجل لمراكز القوى بعد ذلك اعترفوا أنها "بداية النهاية".. أى بداية نهايتى أنا. وأننى أقترب منها بشدة. وأنه لم يبق أمامهم غير خطوات. وأخذوا جميعاً يتقاربون ويستعجل بعضهم البعض.. ثم حانت الفرصة التى ستجعل النهاية المحتومة شيئاً مؤكداً .. فقد كانوا جميعاً يتوقعون – هم الروس والأمريكان والإنجليز- أن حياتى لن تطول فى أيديهم أكثر من شهر أو شهر ونصف.

وفى تقديرهم أننى رفضت أن أتلقى أوامرى من موسكو.. وهذه غلطة كبرى فى نظرهم، إذ كيف ترفض دولة صغرى منهارة كمصر أن تأتمر بما تمليه دولة عظمى مثل روسيا..

ثم هذه المرة التى أتمت فيها الاتفاق فى بنى غازى مع الرئيس الأسد والقذافى على الوحدة بيننا.. كان من الضرورى أن أستأذنهم- أقصد مراكز القوى- أو استأذن اللجنة العليا. فإذا عرضته على اللجنة العليا رفضوه.. ورفضونى أيضاً. وفى ذلك قضاء على .. أو إن لم يكن قضاء على فهى فرصة لكى أتعلم على أيديهم درساً لا أنساه.. وبعد ذلك أعرف الحقيقة الجديدة: أنهم أصحاب اليد العليا والسلطة، وأنهم

قادمون وانني ذاهب أو كان من المفروض أن أذهب منذ وقت طويل ولكني كنت قد بقيت فى الحكم أكثر مما كان مقدراً لي فذلك يرجع إليهم. وأنهم لذلك يستحقون منى الشكر والامتنان.

ثم دعوتهم عندى فى القناطر الخيرية وتناقشنا خمس ساعات، ولاحظت أنهم فى هذا الاجتماع متفقين قبل مجيئهم. تماماً كالاجتماع السابق في مارس الماضى. أما هذا الاجتماع فقد كان فى أبريل مع فرق واحد: أن اجتماعهم هذه المرة كان قد تحول من مجرد عرض عادي إلى مسرحية قدر رتبت فيها الأدوار. فكل واحد أخذ موقفاً خاصاً وجانبا. وكلامهم كان جميلاً معسولاً ورأيت أمامى عملاً مدروساً.

وحاولت أن أعرفهم أكثر، وأن أعرف ابعادهم بمنتهى الوضوح. فالموقف لم يعد يحتمل الغموض أو السكوت رايت أن نأخذ الأصوات. وقلت : إذن نأخذ الأصوات وأخذنا الأصوات. وجاءت النتيجة 5 إلى 3 .. ثلاثة هم د. فوزى وحسين الشافعى وأنا .. أما الخمسة فهم: شعراوى جمعة ولبيب شقير وضياء داود وعبد المحسن أبو النور والفريق فوزى، ولم يكن شعراوي جمعة عضواً فى اللجنة العليا وإنما أضيف إليها بعد أن أخرجنا على صبرى منها بسبب فضيحة الحقائب الكثيرة جداً التى أتى بها من موسكو. وأصبح شعراوى جمعة عضواً فى اللجنة العليا وأن لم يكن عضواً منتخباً. قال شعراوى جمعة: ولكن ليس لى صوت لأننى لست عضوا.

قلت أعرف ذلك. وإنما أردت أن أتبين وجهة نظر الجميع. وهذا يكفى.

كانت السعادة تغمر هؤلاء الخمسة.. ورأوا فى ذلك انتصار.ووجدوا فى صمتى نوعاً من الهدوء الذى يسبق العاصفة التى ستلقى بى إلى النهاية التى يتوقعونها وصول الأحداث إليها. وتوقعوا طبعاً أن أبعث إلى سوريا وليبيا وأقول لهما : إن الاتفاق قد فشل لأن الموسسات عندنا قد رفضته وإننى لذلك شديد الأسف على كل ما حدث!.

ولم افقد أعصابى. وإنما اتجهت إليهم قائلاً: إن هذا الاجتماع قد طال، وفاتنا أن نتناول الغداء .فهيا بنا قبل ما يبرد الطعام.

ولم اكن فى حاجة إلى أن اتلفت ورائى لأرى غمزاتهم وهمزاتهم ولا اللمعان فى عيونهم يحمل التهنئة لتعجل النهاية العظيمة لمؤامرتهم ضدى.. التفت لشعراوى جمعة وقلت له: يا شعراوى يجب ان ندعوا اللجنة المركزية يوم الأحد القادم لنعرض عليها الامر واتجاهاتنا وكل ما قررناه!.

ولكن واحد منهم أحس كأن ثعباناً لدغه فصرخ قائلاً لماذا اللجنة؟ .. لماذا نعرض خلافاتنا على أوسع نطاق؟.انه لبيب شقير..

قلت : لابد أن نذهب إلى اللجنة المركزية.. هذه هى الاصول وهى الأساس. وإذا نحن اجتمعنا كلجنة عليا هذه اللجنة العليا هى "مكتب" اللجنة المركزية صاحبة السلطة. يجب ألا ننسى ذلك!.

دعوتهم إلى الطعام .. ولم يذق واحد منهم الطعام فقد انسدت نفوسهم. وبدلاً من أن ينهوا المعركة، فقد استدرجتهم إلى مجال أوسع، وفتحت عليهم نار جديدة ومعركة لم تكن فى حسابهم.

خرج هؤلاء السذج وتصوروا أننى لا أدرى ما الذى يفعلونه مع أننى كنت اتعقبهم تماماً. وسارعوا فأرسلوا إلى جميع أعضاء اللجنة المركزية فى الأقاليم وجهزوهم ولقنوهم ماذا يقولون، وإذا لم يفعلوا فماإذا يفعلوا وإذا لم يفعلوا فما هى الشائعات التي سيطلقونها فى كل مكان.

فقد كانوا يعتقدون أن القوة الأساسية لهم فى الاتحاد الاشتراكي. تماماً كما تصور السوفيت أن هؤلاء هم القادرون على عمل كل شيء فى مصر، ومن بين قدراتهم الإطاحة بى فى أربعين يوماً على أكثر تقدير!.

وكان هذا معروف. ولكنى حريص على روايته لكى أبين الآن وفيما بعد كما سنرى. دور السوفيت فى هذا كله.

ولابد أن السوفيت. مثل كل الدبلوماسيين. فى مصر، قد سمعوا بما جرى فى القناطر. وعرفوا من رجالهم ما الذى قررته عندما دعوت اللجنة المركزية. ولابد أنهم

يرقبون الموقف ويلقون عليه الضوء ويمدونه بالتوجيهات والنصائح والمزيد من البنزين ليزداد الموقف اشتعالاً ويتسلم السلطة.. رجالهم .

فلم يكن ترقب السوفييت سلبياً ولا كان دورهم هو دور المتفرجين على مسرحية لا تعنيهم وإنما كان انتظارهم إيجابياً مغرضاً. ما فى ذلك شك.

ولابد أن الروس سمعوا بما حدث فى اللجنة المركزية، وكيف إننى طلبت منهم واحداً واحداً أن يدلى برأيه، وكيف إنهم قد أتوا ببعض الأعضاء يحدثون ضوضاء ولغطاً ويدقون الأرض بأقدامهم. وعرضنا على اللجنة المركزية كل ما دار بيننا .. وتحدث على صبرى وضياء داود.. وعرفت اللجنة المركزية بكل ما حدث وبالتصويت على القرار الخاص بالموافقة على اتفاقية الاتحاد مع سورياً وليبيا.

وطلبت إلى اللجنة المركزية: ما رأيكم الآن وقد عرضنا عليكم كل شيء. فلا يبق إلا أن أعرف التصويت على ذلك واحداً واحداً..

وتنبه شعراوى جمعة الذى كان محركاً لكل شيء. وليس على صبرى. إلى أن الموقف سوف يفلت منه. وإلى أن التصويت لن يكون فى صالحه. فأشار إلى الذين يدفون الأرض بأقدامهم أن يتوقفوا .. وانصاعوا له وجمدت أرجلهم.. فلم تعد تسمع لهم صوتاً .

ثم أتجه ناحيتى ليقول لى: نحن نفعل لك ما تريد.. هل تريد لجنة فرعية؟ موافقون.. وبعد ذلك نؤجل الجلسة. ووجدت أنهم خسروا هذه المعركة.. فوافقت على تأجيل الجلسة.. ووافقت على تشكيل لجنة فرعية...

ومن الغريب أننى ذكرت لهم قبل ذلك يوم اجتماعنا فى القناطر: أحب أن أقول لكم شيئاً هاماً جداً.. إن هذا الاتفاق الذى صوتم ضده لن يسقط بهذا التصويت.. ولذلك يجب أن نرجع إلى اللجنة المركزية.. ليس هذا هو الذى أريد أن أذكركم به .. ولكن أحب أن أنبهكم إلى أن هذا الاتفاق مكتوب بخط جمال عبد الناصر. وأن هذا اتفاق على الاتحاد.. وليس الوحدة الاندماجية. فلن نكرر ما حدث بيننا وبين سوريا قبل ذلك..

ولهذا فإنه اتحاد بين دول عربية أو بين جمهوريات. ثم إن جمال عبد الناصر قد عرض هذا الكلام وهذا التصور فى ليبياً.

وكان من المقرر أن يسافر من ليبيا إلى دمشق. وهذا كله تعرفونه. وسمعتموه من جمال عبد الناصر فى تلك الليلة كانوا محاصرين الإذاعة.

وكان هؤلاء الناس لا سند لهم فى ذلك الوقت إلا الاتحاد الاشتراكى واللجنة العليا واللجنة المركزية .. هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى كان سندهم الاتحاد السوفيتى. وكان سندهم الوحيد طبعاً.

ومن الضرورى أن أؤكد أن الاتحاد السوفيتى كان وراء ذلك ويباركه. وأننى كنت. ولا أزال. على يقين من ذلك. وعلى يقين من استعداد السوفيت لمساندتهم ومساعدتهم بغير حدود..

هؤلاء الناس لم تكن لهم أرض يقفون عليها. لا سند شعبى. ولا جماهير. ولكنى كنت أعرف الأرض الصلبة التى أقف عليها.. والمجال الوطنى الذى أتحرك فيه.

وقررت أن استدعى السفير السوفيتى إلى القناطر وأن أجلس معه فى نفس المكان الذى جلس فيه، رجال السوفيت، فى اللجنة العليا. وكان ذلك فى شهر أبريل.

وكانت عندنا بعض المشاكل مع السوفيت. تناقشت معه بشأنها. وانتهيت فيها إلى رأى وقلت له : لعلك سمعت عن كل الذى جرى أخيراً..

فقال: بلغنى بعض الذى جرى.

فقلت : بل بلغك كله وبتفاصيله.

فقال: إن السفراء الأجانب يسألوننى عن حقيقة ما حدث.

فقلت له: سأحكى لك ما جرى. وأن كانت هذه من صميم شئوننا الداخلية. ولكن لأننا أصدقاء فمن المناسب أن أطلعك على حقيقة الأمور. ولأننى حريص على هذه

الصداقة، فهى صداقة بين دول، وليست بين أشخاص وهى تتعلق بمصالح الملايين، وليست بمصالح الأفراد عندنا وعندكم.

ولم ينطق السفير السوفيتى.

وعدت أقول له: أطلب منك أن تبلغ القيادة السوفيتية بريجيف وكوسيجين وبودجورنى هذا القرار. وأنا سأطلعهم على هذا القرار قبل تنفيذه حتى لا يسيئوا فهمه. وحتى لا تلتقطه الدول الغربية وتبالغ فى مدلوله. على كل حال. لقد اتخذت قراراً، وأرى من الضرورى أن أطلعكم عليه. وعلى الرغم من أنه قرار داخلي يخص مصر. فإنه مقتضيات الصداقة تحتم على أن أطلعكم عليه.

ولم يشأ السفير السوفيتى أن يسألنى ما هو هذا القرار. وانتهزت الدهشة العميقة والخيرة التى غمرته. فأطلت فى الصمت. ورفع الرجل رأسه يستعجل سماعة منى، لعلى أخفف عنه هذه الخبرة.

قلت: أما قرارى فهو: لقد قررت تصفية على صبرى وأبعاده تماماً عن القيادة السياسية.. ولكى أكون واضحاً أكثر من ذلك فإننى أقول لك. . إننى أسمح "بالخلاف"، فى الرأى ولكن لا أسمح، "بالصراع" فى السلطة.. أسمح بأن يختلف الناس .. وأن يكون هذا الخلاف من أجل الصالح العام.. ولكن الذى رأيته ، وعلى يقين منه الآن. ليس شيئاً من ذلك.. وإنما هو استدراج إلى هاويه.. أو استدراج إلى حافة الهاوية.. وهذا ما لم أسمح به ولن أسمح به..

وسألنى السفير السوفييتى، ومتى ستتخذ هذا القرار؟

قلت: ليس بعد. ولكنى حريص على صداقة روسيا .. ثم إن هذه الصداقة لا أظن أنها سوف تتأثر بذهاب واحد من رجالها.. أو رجلها- كما ستقول صحف الغرب- وأنا أعلم عن يقين أنكم شكاكون بطبعكم. ورغم كل هذا الوضوح فى سلوكى معكم. وإطلاعكم على دقائق ما يحدث فى مصر، وعلى قراراتى المستقبلية. فإنكم سترتابون فى كل ما أقول أو كل ما قلت حتى الآن.. مع أننى أثبت عشرات الممرات أننى

صريح. وأننى لا أكذب. ولست مضطراً إلى ذلك.. ولم أخف عن القيادة السوفيتية كل متاعبى.. وأنت كنت معى فى زيارتى السرية لموسكو ورأيت وسمعت.. وتعرف جيداً كل جوانب فكرى واقتناعى.. ورغم هذا كله، فإننى أعرف أن قيادتكم تبدأ بالشك فى بعض الأشياء وتنتهى بالشك فى كل شيء!.

ومن المؤكد أن السفير السوفيتى قد أبلغ حكومته بكل ما دار بيننا. وكان هذا هدفى طبعاً. ولابد أن السوفيت قد أطلعوا رجالهم على هذا كله. ولذلك فقد اتجهوا فى نشاطهم إلى العنف. وأنزلوا المنشورات، و(التعميمات) إلى كل مكان وراحوا يستنكرون قراراتى ، ويهاجموننى شخصياً.

إذن لقد أصبحت المعركة سافرة. والغريب أنهم تصوروا أننى غائب عن كل ما يفعلون. أو أننى فى واد آخر .. أو أننى أهوشهم.

إلى أن جاء يوم أول مايو. وخطبت. وكنت قد اطلعتهم على خطبتى قبل كتابتها. إمعاناً فى تهدئتهم وتنويمهم أيضاً. ولكى أضاعف لديهم الشعور بأننى أمن لهم تماماً وقد استراحوا لذلك.

ولكنى فعلت هذه المرة بالضبط ما سبق أن فعلته يوم ألقيت خطبة المبادرة فى مجلس الشعب: أخرجت من جيبى ورقة بخط يدى وقرأتها.

وكانت مثل قذائف من النار لسعتهم وأحرقتهم. وفقد شعراوى جمعة أعصابه. وثار على سامى شرف لأنه لم يخبره بذلك.

والذى حدث هو أنه فى آخر الخطاب الذى ألقيته أول مايو فى عيد العمال أخرجت الورقة التى كتبتها بخط يدى وهى تقول بالحرف الواحد: إن جمال عبد الناصر قال وأنا أردد من ورائه.. إن الشعب هو المعلم وهو القائد وهو الخالد أبداً، وإن الشعب هو صاحب هذا البلد وهو الذى سيخوض مع قواته المسلحة معركة حياة.. بكل مسئولياتها وما تفرضه من تضحيات.. إذن فليس من حق أى فرد أو جماعة مهما كان هذا الفرد أو تلك الجماعة أن تزعم لنفسها قدرة منفصلة عن قدرة هذا الشعب أو أن

تدعى لنفسها موقعاً تستطيع أن تفرض من خلاله رأيها على جموع الشعب وأن تتستر وراء شعارات أو مناورات تحاول أن تشكل من خلالها مراكز قوة تفرض منها وصايتها على الشعب بعد أن أسقط هذا الشعب مع جمال عبد الناصر كل مراكز القوى ليبق الشعب وحدة سيد مصيره.

وقلت وأنا أقرأ من الورقة التى أخفيتها عنهم، وقبل أن اختم حديثى أريد أن أقول لكم.. يجب أن تفخروا بقواتكم المسلحة. لقد اجتمعت ستة اجتماعات مع قادة قواتنا المسلحة كلهم الذين سيدخلون والذين سيعبرون والذين سيخططون . وبؤدى لو استطعت أن أضع أمامكم صورة ستفخرون بها. ولكن لنتركها الآن إلى أن تتم المعركة، لأن وراء الصورة بطولات ورجولة وتضحية وفداء يفوق كل شيء فى صموده فى بناء قواتكم المسلحة وقد أبلغتهم بثقتكم بهم.. وهم يسمعوننى الآن. وأبلغتهم بأملكم فيهم. فكونوا صفاً واحداً من ورائهم.. ولنقف فى المرحلة المقبلة صفاً واحداً خلف قواتنا المسلحة بقلوبنا، بمشاعرنا وإحساسنا، بكل ما نملك.. ونحن سائرون فى طريقنا بوحدة شعبنا وامتناً، بإلهام شعبنا وأمتنا، بطاقات شعبنا وامتناً، لقد رفضت التبعية ورفضت الوصاية وصممنا على الحرية.. حاربنا فى سبيلها حرية الوطن وحرية الإنسان، وحرية تحالف قوى الشعب العاملة.. الحرية الاقتصادية والحرية السياسية، ومكاسب الفلاحين والعمال والحفاظ على روح الديمقراطية، لا عودة لسيطرة رأس المال الإقطاع أبداً، ولا قبول بأى شكل من الإشكال للإرهاب الفكرى الذى يقمع حرية الرأى.

"إن شعبنا بعون الله وبتوفيقه سوف يخرج من هذه الأزمة، سوف يخرج منتصراً عزيزاً، وسوف يخرج بعون الله قوياً مرفوع الرأس واثقاً بنفسه واثقاً بمبادئه، وراسخ الإيمان أكثر وأكثر بقيم نضاله وبأسلوبه فى الكفاح العربى من أجل هذه القيم.

وفى ختام ورقتى التى أخفيتها عن مراكز القوى قلت: إن إعلام الحرية لم تسقط على هذه الأرض العظيمة الطاهرة قط، إن إعلام الحضارة لن تتراجع، إن أعلام التقدم لن تتوقف، وستكون أقوى وأقوى بإذن الله، وأعلى وأعلى بإذن الله، كذلك تقول لنا تجربتنا مع التاريخ. والتجربة مع التاريخ هى الدليل إلى المستقبل. وصدق جمال عبد

الناصر حين قال فى آخر خطاب له: نحن نسير نحو هدفنا هو تحرير الأرض المحتلة، وحركتنا نحو تحقيق هذا الهدف ليست حركة مقيدة.. إنما هى حركة مفتوحة تلزم نفسها بالمبادئ الأساسية لنضالها.

وفى اليوم التالى طلبت من سامى شرف أن ينشر فى الصحف وفى سطر ونصف أننى أقلت على صبرى من جميع مناصبة. أما عضويته فى اللجنة العليا واللجنة المركزية فهى من شأن الاتحاد الاشتراكى. وسوف يكون لها قراراً فيما بعد.. وأتى سامى شرف بالقرار ووقعته فوراً. وتأكدت عن طريق مكتبى أن هذا الخبر قد أبلغ إلى الصحف.

وبعدها بأيام جاءنى روجرز. وكان سعيداً بقبولى للمبادرة، وباركها قائلاً: لم تعد لإسرائيل حجة الآن فأنت ألقيت الكرة فى ملعبهم وسددتها إلى المرمى، ونحن نحتسب لك هدفاً مؤكداً!.

وذهب روجرز إلي اسرائيل . واطلع جولدا مائير علي ذلك . وأعطاه اليهود درسا موجعا . وظلوا يطاردون الرجل حتي قضوا عليه تماما .

أما قرار طرد على صبرى فى 3 مايو سنة 1971 فقد أصاب زملاءه أقطاب مراكز القوى بالجنون، فقد جاء مباغتاً وسريعاً. وفى ذلك الوقت اتصلوا جميعاً ودارت بينهم مناقشات واتفاقات واختلافات قد انكشفت كلها من التسجيلات التى عرفناها فيما بعد.. فقد كان شعراوى جمعة يسجل لعلى صبرى وسامى شرف. وسامى شرف يسجل للأثنين فأجهزة المباحث تعمل لحساب شعراوى جمعة وأجهزة المخابرات تعمل لحساب سامى شرف.

ففى حديث سجل بين على صبرى وسامى شرف ليله 3 مايو ذكر فيه سامى شرف أنه صدر قرار باقالته وأخبره أن شعراوى جمعة والفريق فوزى موجودان عنده وانهما يطلبان إليه أن يلزم الهدوء. وأن يترك لهما الأمر.

وفى حديث آخر مسجل بين شعراوى جمعة وعلى صبرى يقول له شعراوى جمعة: هذه هى بداية المعركة هذه بدايتها. وسوف تكون هناك أشياء أخرى كثيرة وكل ما نرجوه من سيادتكم هو الهدوء يوماً أو يومين. وسوف ترى ما الذى تفعله الجماهير. وسوف ترى رد الفعل أتركنا نتحرك. وسوف ترى النتيجة التى تسرك.

ويرد على صبرى فى التسجيل: ماذا تقصد بقولك اتركنا نتحرك؟

ويرد شعراوى: سيادتك تسكت. فنحن نتكلم طول الوقت. ونفكر كيف تسير الأمور إهدأ سيادتك ً إنها غلطة كبيرة ارتكبها. وغداً سوف ترى سيادتك صداها. سوف يدفع ثمنها أترك لى الأمور يومين فقط وسوف ترى ما الذى تفعله قواعد الاتحاد الاشتراكى عملية إقالتك هذه سوف نستغلها استغلالاً مروعاً.

وفى التسجيلات نجد أن على صبرى يسأل شعراوى جمعة عن موقف الفريق فوزى فيرد عليه شعروى قرفان.

ويكون رد على صبرى : قرفان.. وساكت؟ لابد

تردوا على السادات قبل أن يقضى عليكم جميعاً.

ويقول له شعراوى: نحن فى الطريق إلى القضاء عليه!.

ثم توالت الأحداث بسرعة وبعنف .. وترنح الناس الذين توهموا أنهم شيء كبير، وتوهم السوفيت أيضاً أنهم أكبر من ذلك بكثير. فقد أعطاهم السوفيت أحكاماً وأوزاناً وأدواراً تؤكد سوء فهم السوفيتى للامور فى مصر وشعب مصر.

وقررت حل الاتحاد الاشتراكى لكي تجرى الانتخابات من القاعدة إلى القمة وتكون لنا بعد ذلك لجنة مركزية جديدة منتخبة ولجنة عليا.. قررت ذلك أمام أعضاء اللجنة العليا، فيما عدا على صبرى وضياء داود رفضت دعوتهما إلى بيتى.. حرصاً على نظافه بيتي أو اي مقعد مجلس أى منهما عليه!.

وخرجوا من بيتى فاقدين للنطق والحركة وضاعت من عيونهم النظرة، ومن رؤوسهم الاتجاه....

ويوم 11 مايو عرفت التسجيلات.

ويوم 13 مايو أصدرت قراراً بإقالة شعراوى جمعة وفجأة تلقيت رسالة من القيادة السوفيتية تقول الرئيس بودجورنى يريد زيارتى.

أهلاً وسهلاً .. ورحبت فوراً .. وجاءت زيارته في نفس الشهر.. وقابلته رسمياً فى المطار. وأخذته إلى قصر القبة ونزل بمنتهى التكريم على الرغم من أن هذا الرجل سخر من الجيش المصرى.. وأسمعنى ما أوجعنى من تعليقاته المؤلمة على قواتنا المسلحة وعلى معاركها في استيعابها للسلاح . . وتحملت.. كما تحملت اشياء قبل ذلك بعد ذلك .. ولكن لم أنس له ماقال لن أنساه.

وفى قصر القبة. طلب منى الرئيس بودجورني ان نكون بمفردنا ووافقت وجلسنا والمترجم ثالثا .... أسجل ما دار بينى وبينه بمنتهى الدقة. أنا جئت لأننا نريد أن نوقع معاهدة بيننا.

غريبة، وعجيبة أيضاً ألا تذكر أننى جئت أطلب معاهدة. ومن قبلى ذهب إليكم جمال عبد الناصر يطلب معاهده. ورفضتم طلبى وطلبه. فماذا حدث ثم ما علاقة هذه المعاهدة الآن، بما أرسلته لكم من قبل أننى سوف أقوم بتصفية على صبرى؟ لقد ارسلت لكم مع سفيركم هنا بأننى سوف أقيل على صبرى من مناصبه... إلا إذا كان سفيركم فى مصر لم يبلغكم شيئا من هذا.

لقد أبلغنا بكل شيء.

هل صدقتم ما قالته صحف الغرب من أن على رجل موسكو؟

لا .

إذن لماذا تريدون عقد معاهدة. أرجو أن تقبل نصيحتى. أنا رجل صريح وقد صارحتكم بقرار تصفية على صبرى قبل ذلك بشهر. السبب هو حرصى على الصداقة بين مصر والاتحاد السوفيتى. وأنا لا أعرف نياتكم بوضوح.. ثم إنكم أناس شكاكون بطبيعتكم ولا تصدقون ما يقوله لكم أكثر الناس حرصاً عليكم.. ولعلكم صدقتم هؤلاء الناس الذين ليس لهم وزن شعبى أو قيمة جماهيرية.. إذا كان لى من نصيحة، وأرجوك قبولها. فهى أن تؤجلوا عقد هذه المعاهدة إلى 23 يوليو.. وسألنى: ولماذا.

قلت: فى 23 يوليو سوف تجرى الانتخابات كاملة فى الاتحاد الاشتراكى من القاعدة إلى القمة. وسوف ينعقد مؤتمر قومى عام. وسأوجه لك دعوة رسمية. ومن الآن أدعوك.. وأمام المؤتمر القومى الجديد نعقد هذه المعاهدة وأنا أعطيك كلمة من الآن. وأنا إذا قلت فعلت. وأنتم تعرفوننى لا أكذب.. فما رأيك؟ ..

حاول الرجل أن يثنينى عن رأيى أو عن موقفى. ولكن لم أطاوعه ولم أجامله.. ولا أبالغ إذا قلت إن الرجل كان يتوسل بأشكال غريبة.

وكان يقول: إن المكتب السياسى قد اجتمع وإن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى قد اجتمعت، وكلفونى جميعاً بأن أتقدم بطلب عقد معاهدة مع مصر.. وإن شماتة الغرب فيما أصاب الاتحاد السوفيتى فى مصر لا توصف.

ويظهر أن الصحف الغربية قد أبرزت هذه الزيارة.

ووضعوه أن الصحف الغربية قد أبرزت هذه الزيارة ووضعوه فى صور كاريكاتورية يستعرض فيها رجال مراكز القوى وقد ارتدوا ملابس السجن جميعاً!.

ثم قال لى: هل يرضيك ما أصابنا فى مصر، وما تنشره الصحف الغربية؟

قلت: والله أنا محتار. لقد أطلعتكم على القرار قبل صدوره. وصارحتكم. ولم أخف عنكم شيئاً. وصدر القرار وانتهى.

وعاد الرجل يعيد ويزيد ويقول ويكرر ما دار فى المكتب السياسي واللجنة المركزية.

فقلت له: هل إذا انعقدت هذه الاتفاقية تستريحون.

قال: نعم.

قلت: ولا يصبح عندكم شك فى مصر؟

قال : نعم.

قلت: وبهذه المعاهدة ينتهى الطريق الشائك الذى قطعه جمال عبد الناصر، أو الذى قطع قلب جمال عبد الناصر وقلبى؟

قال: نعم.

قلت: وبهذه المعاهدة ينتهى الطريق الشائك الذى قطعه جمال عبد الناصر، أو الذى قطع قلب جمال عبد الناصر وقلبى؟

قال: نعم.

قلت هل أنا محتاج إلى أن أذكرك بكل ما قلت فى موسكو؟ وكل ما بعث به سفيركم فى القاهرة؟..

قال : هذا يكفى.

قلت: والدوخة التى عاش بها جمال عبد الناصر ومات تحت تأثيرها ثم استئناف هذه الدوخة معى أيضاً؟. .

قال: أنتهى كل شئ. ونفتح صفحة جديدة.

قلت : نفتح صفحة جديدة؟ وماذا فى هذه الصفحة الجديدة؟

قال: كل ما تريد... لن تمضى أربعة أو خمسة أيام حتى تصل إليك جميع مطالبك التى تقدمت بها فى شهر مارس الماضى.

قلت: كلها؟

قال: نعم كلها.

قلت: خير. وعلى بركة الله.

ودققت الجرس وقلت: هاتوا لى محمود رياض وزير الخارجية.

وجاء محمود رياض وقلت له: يا محمود.. جهز لنا معاهدة مع الاتحاد السوفيتى لنعرضها على مجلس الشعب بعد ذلك.

وليس مبالغة منى إذا قلت إن محمود رياض أصيب بنوع من الهلع. ولم يصدق ما أقول. ومنعه الحياء أو الدهشة أن يسترجعنى ما طلبته منه. ولكن عندما نظر إلى وجد أننى أعنى ما أقول.

ولكنه لم يستطع إلا أن يسألنى: معاهدة يا أفندم؟

قلت : نعم.

قال : معاهدة فعلاً؟

قلت : نعم . وسوف نوقعها غداً.

قال : غداً ؟

قال : نعم غداً.

قال : معاهدة؟

قالت: معاهدة نعم. ونوقعها نعم. وغداً نعم؟

ولعل هذا الحوار يؤكد أن أحداً لم يكن يتصور أن هذا شئ ممكن حدوثه.. أن يطلب السوفيت معاهدة وأن أوافق عليها بهذه السرعة.. وعلى توقيعها أيضاً ولكنه حدث. وهى مناسبة جديدة نرى فيها ما الذى نتقدم به ، وما الذى نكافأ به على ذلك!.

والذى ذهل أكثر من ذلك هو الرئيس بودجورنى. فقد أخبرته أننا سنوقع المعاهدة غداً وفى هذا الصالون من قصر القبة.

وعدت إلى بودجورنى أقول له لأخر مرة مخلصاً: أسمع نصيحتى. إن التوقيت خطأ. وأن منظركم أمام الناس سيئ . لأن معناه أن هؤلاء الناس هم الذين كانوا يحمون مصالحكم. وأن مصالحكم مهددة بالخطر. وأنه لا أمان لكم إلا بالمعاهدة. غلط . الفكرة غلط. وموعدها غلط وصورتكم غلط... أسمعها منى.

ولم يسمع منى هذا النصيحة.. وأعددت المعاهدة وجلس محمود رياض مع جروميكو. وكتب المعاهدة جاء مصورو الصحف والتليفزيون والسينما جميعاً. أمام الكاميرات، أى أمام الملايين والتقطت الصور وتناقلتها الصحف والشاشات فى كل الدنيا.. وتعانقنا.

وبعد ذلك سألته: هل أنت مطمئن الآن؟

قال: نعم.

قلت هل مصالح السوفييت فى مصر مصونة كما يريد المكتب السياسى واللجنة المركزية والقيادة السوفيتية؟

قال : تمام.

قالت له: بعد أربعة أو خمسة أيام سوف تصلنا الأسلحة التى طلبناها؟.

قال: تأكد من ذلك!.

وودعته عند الطائرة ثم بالقرب منها. ثم صعدت السلم.. ودعانى لكى أتفرج على الطائرة الجديدة 62 التى لها أربعة موتورات فى المؤخرة. وتفرجت على الغرف

التى بها المكاتب وحجرة النوم. ولم أنس وأنا فى الطائرة أن أسأله لأخر مرة: بعد أربعة أو خمسة أيام كما قلت؟

قال : ما قلته لك على الأرض أؤكد لك وأنا فى الطائرة.

قلت: وهو كذلك.

قال : اطمئن.

قلت إذنه أحسب أن أقولك لك ثلاث كلمات. وهذه الكلمات الثلاث قد وضعت فيها كل تاريخ العلاقات السوفيتية المصرية من واقع تجارب جمال عبد الناصر وتجاربى أيضاً.

قال : ما هى؟

قلت : الثقة .. الثقة .. الثقة!

قال أنها كلمة واحدة.

قلت: كلمة واحدة كررتها ثلاث مرات.. أرجوك أن تقولها لبريجنيف وكوسيجين.. ولك الشكر..

وقلتها فى رأسى كل ما قرأت فى السجن عن الروس ومن العلاقات السوفيتية فى الدنيا. شرقاً وغرباً.

فالروس لهم طبيعتان : طبيعة كل إنسان خلقه الله وطبيعة أخرى : هى الشك. ليس فقط فى أيام الشيوعيين. وإنما منذ أيام القياصرة. تماماً كما أن الجليد يغطى بلادهم. فالشك يملأ نفوسهم.

وللتاريخ أقول أيضاً إننى لم أترك الرجل فى الطائرة حتى وجدتنى مضطراً إلى أن أذكره بما سبق أن قلته للسفير السوفييتى فى القاهرة، ثم اقتربت منه أكثر وقلت له: عندما أرسلت لكم بأننى سوف أصفى على صبرى، كنت أعرف نوعية الأرض الصلبة

التى أقف عليها.. ولم يكن هو ولا أنتم تعرفون نوعية الفراغ والتفاهة والوهم الذى يقف عليه على صبرى والآخرون! وأظن أن النتيجة واضحة أمامكم الآن..

وصافحته بحرارة وتوقفت لأقول: بعد أربعة أو خمسة أيام؟.

فضحك وهو يقول لى: الثقة.

قلت بل ثلاث مرات .. الثقة.. الثقة.. الثقة.. هذا ما ينقصكم أو ما ينقص علاقتكم بنا، مع السلامة.

ولم يتصور السوفيت أن ما جرى كان من الممكن أن يحدث. وكيف يحدث وبهذه الصورة المفاجئة؟

فالفريق محمد فوزى كوزير للحربية يسيطر على الجيش..

وشعراوى جمعة كوزير للداخلية يسيطر على أجهزة الأمن. وكأمين للتنظيم السرى يسيطر على الجهاز السياسي.

ومحمد فائق يسيطر على الإعلام..

وعبد المحسن أبو النور أمين الاتحاد الاشتراكى يستطيع أن يحرك المظاهرات..

وسامى شرف يسيطر على الحرس الجمهورى ثم إنه يسيطر على مكتب رئيس الجمهورية ولديه كل كلمة وكل حرف فى البلد..

ولابد أن السوفيت قد أدركوا أننى سأذج، إذ كيف أطلعهم على قرارى قبل تنفيذه.

أو لعلهم أيقنوا أن رجالهم سوف يطيحون بى قبل أنفذ هذا القرار.أو أننى لا أعنى ما أقول وأننى أهوشهم وأخدعهم لأنه ليس من المعقول أن أطلعهم على قرار كهذا، ثم إنه قرار يتعلق برجلهم فى مصر..

وسافر الرئيس بورجورنى سعيداً بالمعاهدة..

وأنا عدت سعيداً بما وعدنى به.

فمازالت أتمنى أن يصلنى سلاح الردع الذى وعدوا به جمال عبد الناصر.. ومات الرجل دون أن يرى من ذلك شيئاً ثم جددوا إلى هذا الوعد أيضاً.

وطبعاً – وبمنتهى الصراحة– لم أتصور لحظة واحدة أن رجلاً مثل بودجورنى، رئيس دولة عظمى يعد ويؤكد هذا الوعد، ثم لا يصدق فيما يقول. لا أعرف كيف يمكن أن يحدث ذلك.

إنه رجل كبير فى بلده. ولابد أنهم فوضوه أن يقول فليس من المعقول أن يتطوع بشيء من ذلك، فلا أحد فى الاتحاد السوفيتى يستطيع أن يقول شيئاً من عنده وإنما هو صدى لما يقال له هناك.. فإذا لم يجد ما يقوله، عاد إليهم .. والرأى لهم هناك. كلهم كذلك.

وقلت فى نفسى: حتى إذا لم تأت هذه الأسلحة إلا بعد عشرين يوماً فلا بأس فى ذلك .. أو حتى بعد أربعة او خمسة شهور. المهم أن تجئ .. وهى إضافة لقوتنا ثم إننى لن أستطيع أن أغير طبيعة السوفيت.. وربما اضطرتهم الظروف إلى أن يتزحزحوا قليلاً عن طبيعتهم وربما أكون محظوظاً هذه المرة فتجئ الأسلحة الموعودة في وقت معقول .. ربما..

ولكن دهشتى لم تذهب : إذا كيف يتصور هؤلاء السوفيت أن هؤلاء الناس – الذين أسميهم " الأغوات" كان يمكنهم أن يديروا الأمور ... إنهم مجموعة من التافهين على صبرى وشعراوى جمعة وسامى شرف..

إننى أتصورهم مجموعة من الأغوات كالذين كانوا يعيشون فى بلاط السلاطين. وعندما يموت السلطان يتصور هؤلاء الأغوات الخدم أنم يستطيعون أن يحكموا بدلاً من السلطان.

إن مصر العظيمة لم تصب بالعقم حتى يحكمها مثل هؤلاء الأغوات.

وفى الطريق إلى بيتى جعلت أفكر فى الأيام التى انا مقبل عليها.. ومعى مصر والأمة العربية كلها. فقد حددت هذا العام بسنة الحسم.

وحين أخذت أتأمل ذلك عاد الشريط الطويل للعلاقات السوفيتية والمصرية يدور أمام عينى بسرعه هائلة. وتجملت بالصبر . وبدأت أعد الساعات التى وعدني بها بودجورنى!.